العنوان: الألوان ودلالتها السياسية في العصر العباسي
المصدر: مجلة كلية الآداب - جامعة طنطا - مصر
المؤلف الرئيسي: غراب، عزة حسين
المجلد/العدد: ع 19, ج 1
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 2006
الشهر: يناير
الصفحات: 35 - 78
رقم MD: 337546
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: AraBase
مواضيع: اللون الأبيض ، الألوان ، الأحوال السياسية ، العصر العباسي ، الخلفاء العباسيون ، اللون الأسود ، اللون الأخضر ، اللون الأحمر
رابط: http://search.mandumah.com/Record/337546

الألوان ودلالتها السياسية فى العصر العباسى

الدكتورة/ عزة حسين غراب
كلية التربية بدمياط- قسم اللغة العربية

الألوان ودلالتها السياسية في العصر العباسي (*)

مقدمة :

في ظل واقعنا الأليم، وفي ظل ما نراه كل يوم من اعتداء إسرائيلي غاشم على إخواننا في فلسطين، وفي ظل ما نراه من احتلال أمريكي سافر للعراق، وفي ظـل ما نراه في لبنان من أحزاب وجماعات.. وجدنا روحًا مقاومة تسود وتتعمق عبـر جماعات مختلفة، ووجدنا كل جماعة تحمل راية ذات لون مميز لها، يخرج عن إطار عَلم الدولة ولونه، فهذه راية خضراء، وهذه صفراء، وتلك بيضاء...

كـل هـذا لفت انتباهي لأبحث عن سر اختيار هذه الجماعات للون دون غيـره، فأخذت أبحر في تاريخنا القديم باحثة عن ألوان الألوية والرايات ودلالتها، مـع علمـي أن اللون يتخذ كعلامة لغوية ذات دلالة يتفق عليها في أحيان كثيرة، فعرفت أن هذه الظاهرة قديمة عند العرب وغيرهم، وإن بدت بملامح بارزة وألوان مـتعددة في العصر العباسي، حتى ذكرت الجماعات منسوبة للون راياتها، فهؤلاء: المسوّدة، وهؤلاء المبيضة، والمحمرة، والمخضرة..

ومـن هـنا التمست أن الألوان كانت تلعب دورًا أساسيًّا في هذا العصر، فكان هذا البحث:" الألوان ودلالتها السياسية في العصر العباسي".

تحـدثت فـي هذا البحث عن علم العلامات، وكيف أن العلاقة قد تتخطى اللغـة الملفـوظة، وأن اللون يستخدم في اللغة البصرية، ويعطي دلالات مختلفة، وتحدثت عن الألوان، وكيف ترى ، ثم نبذة سريعة عن الألوية والرايات ، ثم نفذت بعدها لدراسة دلالة الألوان في العصر العباسي من خلال الألوية والرايات، فبدأت باللـون الأسـود، ثـم الأبيض، ثم الأخضر، ثم الأحمر، مرتبة هذه الألوان حسب أهمية الجماعة التي تستخدمها، وحسب حجم الدور الذي تلعبه.

وأسأل الله التوفيق

(*) الدكتورة / عزة حسين غراب - كلية التربية بدمياط - قسم اللغة العربية

إذا كنا نعترف بأهمية اللغة الطبيعية في جميع ممارستنا الإنسانية، فإننا نـــرى أنهـــا لا تشـــكل نظـــام الدلالـــة الوحيد أو نظام الاتصال الفريد في حياتنا الاجتماعـــية والفـــردية[١]، واللغة بهذا الاعتبار تشترك مع طائفة أخرى من النظم يصـــدق عليها ما يصدق على اللغة من أنها تتكون من علامات اصطلاحية يستعان بهـــا على توصيل دلالات اصطلاحية، سواء اتسعت دائرة الاصطلاح أو ضاقت، وأيًّـــا كانت المادة التي يتكون منها أي نظام من هذه النظم، وأيًّا كانت الحاسة التي يتجه إليها أو يخاطبها أي نظام.[٢]

ومـــن هـــنا اتسع مفهوم الكلام ليعرف بأنه نظام من العلامات..على أن يعنـــى بالعلامة أي رمز قابل لأن يستخدم للتفاهم بين البشر.. ولما أمكن للعلامات أن تكون متنوعة الطبيعة، أصبح هناك عدة أنواع من اللغات، فكل أعضاء الحواس يمكـــن اســـتخدامها في خلق لغة، فهناك لغة الشم، ولغة اللمس، ولغة البصر، ولغة السمع، وهناك لغة كلما قام شخصان فأضافا معنى من المعاني إلى فعل من الأفعال بطـــريق الاتفاق، وأحدثا هذا الحدث بقصد التفاهم بينهما، فعطر ينشر على ثوب ، أو مـــنديل أحمر أو أخضر يطل من جيب سترة، أو ضغطة على اليد يطول أمدها قليلا أو كثيرا... كل هذه تكون عناصر من لغة ما دام هناك شخصان قد اتفقا على استعمال هذه العلامات في تبادل أمر أو رأي.[٣]

ومـــن أشهر أنظمة العلامات[٤] التي تأخذ أشكالا بصرية وتخاطب العين، فبالإضافة إلى الإشارات التي يحدثها أعضاء الجسم الإنساني نجد الضوء والرايات وما أشبههما.

---

(١) مدخل إلى السيميوطيقا، إشراف: سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد،ص٣٧، دار إلياس العصرية.

(٢) علم اللغة مقدمة إلى القارئ العربي، د. محمود السعران، ص٦٦، دار الفكر العربي، القاهرة.

(٣) اللغة ، ج فندريس ، تعريب: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، ص٣١.

(٤) علم اللغة ، د. السعران، ص٦٧ وما بعدها.

أما الأشكال السمعية لهذه الأنظمة الاصطلاحية غير الكلام الإنساني فيقوم أغلــبها على الاستعانة بآلات وأدوات معينة، غير جهاز النطق الإنساني.. كرنات الأجراس ودقات النواقيس للدلالة على معان اصطلاحية، ولتوصيل معان، كما هو الحــال فــي الكــنائس والمعابــد والمدارس، وأصوات الأبواق والنوافير وما إليها تســتعمل فــي الجــندية والمعســكرات للتحية ولإصدار أوامر خاصة للاستدعاء والانصراف والإيذان بمواعيد الطعام..

ورغــم ذلك، فهناك لغة من بين مختلف اللغات الممكنة تطغى على جميع مــا عــداها، بتنوع وسائل التعبير التي في طوقها: وهي اللغة السمعية التي تسمى أيضــا لغــة الكلام أو اللغة الملفوظة.. وقد تصحبها بعض الأحيان اللغة البصرية، وغالبا ما تكون مكملة لها، والإشارة عند جميع الشعوب تقطع الكلام، وهيئة الوجه تترجم في آن واحد مع الصوت عن الانفعالات والأفكار.

ولعــل اللغة البصرية توازي اللغة السمعية في قدم العهد، فليس لدينا ما يحملــنا علــى الاعتقاد بأن إحداهما متقدمة عن الأخرى..، ولكن ربما يكون للغة البصــرية بعــض المزايا: إذ يمكن استعمالها على بعد بين مكانين لا يقدر الصوت على أن يصل بينهما.(١) إضافة إلى أن البصر يعد أهم جهاز إدراكي ننفذ بواسطته إلى البيئة التي نعيش فيها.(٢)

وتشــغل الألــوان حيــزًا واســعًا مــن اللغة البصرية حيث " لا تقتصر اســتخدامات الألــوان فــي حــياة الإنسان على النواحي الجمالية، وعلى استثارة الإحســاس بالــبهجة والانشــراح، وإنما تستخدم كذلك - وربما في المحل الأول- لأغراض وظيفية وأهداف عملية يعد عنصر الجمال أو المظهر فيها أمرًا ثانويًا.

---

(١) اللغة، لفندريس، ص ٣٢.

(٢) مــدخل إلــى الدلالــة الحديــثة ، عــبد المجــيد جحفــة ، ص٥٣، الدار البيضاء المغرب ،١٩٩٩م.

واســتخدامات الألوان لأغراض وظيفية تملأ علينا حياتنا حتى صار من المستحيل أن نتصور عالمنا بدون ألوان.. فالمرور تنظمه الألوان، ولوحات أجهزة الطيـران ومــدارج الهبوط، وتقاطعات الطرق، وأنابيب المياه، وأسلاك الكهرباء وغيــرها.. تــنظم بأشكال من الألوان والأضواء والإشارات الملونة.(١) فاللون هنا تحول إلى علامة ذات دلالة تدخل في إطار اللغة البصرية.

ولنأخذ مثلا آخر: يشكل لبس الأسود علامة الحداد في بعض البلدان وفي أقالــيم أخرى يلبس أهلها ملابس بيضاء في العزاء. فالأسود والأبيض علامتا حداد فــي ثقافات متباينة تكتسبان دلالتيهما من السياق الثقافي، إلاّ أن لون الحداد لا يغير مــن كون اللون - أسود وأبيض- مقومًا تعبيريا يستخدم لتوصيل رسالة معينة إلى مــتلقٍ مــا،ودلالته لن تخفى على أفراد الجماعة التي تستخدمه.(٢) فالكيان المادي للعلامــة التــي يمثلها اللون هنا ليس له قيمة إذ تكمن القيمة في الاختلاف الوظيفي للعلامة.

إن اللون الأحمر الذي ينتمي إلى نظام إشارات المرور لا يمت بصلة إلى اللون الأحمر الذي يظهر في العلم الفرنسي الثلاثي الألوان: أزرق- أبيض-أحمر، ولا يمــت اللــون الأبيض الذي يظهر في هذا العلم بصلة إلى اللون الأبيض الذي يشــير إلــى الحــداد في الصين، إذ تعرف قيمة العلامة فقط من خلال إدخالها في الــنظام الــذي تنتمــي إليه ومن هنا لا توجد علامة يمكن أن تعبر حدود الأنظمة المختلفة.(٣)

* * * * *

---

(١) اللغة واللون: د: أحمد مختار عمر، ص١٤٧، عالم الكتب، الطبعة الثانية سنة١٩٩٩.

(٢) السيميوطيقا، ص ٩.

(٣) نفسه، ص١٨٥٠.

ومــن هــنا وجدنا أن اللون خرج عن كونه منظرًا يبهج العين الباصرة ويسر النفس إلى لغة دالة تحمل رسالة وتقيم تواصل؛ ولهذا كان يجب أن نعرف ما اللون قبل أن نبحر في دلالته السياسية.

قــد عــرف العلماء اللون بأنه:" ما هو إلا ذلك التأثير الفسيولوجى الناتج على شبكية العين، سواء أكان هذا اللون مادة صباغية أم ضوءًا ملونًا" [١].

كمــا عرّف بأنه " ظاهرة من النور أو الإدراك البصري يمكن المرء من التمييز بين الأشياء التي لولا هذا اللون لكانت متطابقة.[٢]

ولهــذه الأهمية البالغة للألوان وجدنا الإنسان يهتم بها إلى درجة كبيرة ، " فعلـــى الرغم من أن الحياة من حولنا تزخر بألوانها الطبيعية المتنوعة والمتناسقة – ســواء فــي طيورها وحيواناتها أو أزهارها ونباتاتها أو فيما يكتسبه الأفق من ألوان خلال دورة الحياة اليومية– فإن الإنسان لم يقنع بهذه الحياة الملونة الطبيعية، وأضـــاف إلــيها من فنه وعلمه آلافا مؤلفة من الألوان والتركيبات اللونية، وأدخل اللــون الصناعي في كل شيء حوله حتى كادت الحياة غير الملونة (أبيض، أسود) تحتفي من حياتنا، وإذا صادفتنا نملها ونفر منها " [٣]

إلاّ أننا لا نستطيع إدراك الأشياء الملونة إلا بواسطة الضوء الواقع عليها والذي يعكس جزءًا منه إلى عيوننا؛ ولذلك فأي شيء ملون إذا ما سلط عليه ضوء قــوى فإنه يعكس إشعاعا أكثر وبالتالي يكون أكثر نصوعًا، أما إذا وقع هذا الشيء الملون تحت ضوء خافت فإنه يعكس قليلا ويظهر غير واضح.

فالضــوء هــو الذي يبث الحياة في الألوان. فنحن نرى كل شيء حولنا مظلمــا في المساء، فإذا ما ظهر شعاع الشمس مع الصباح أو حتى أوقدت أضواء

---

(١) اللون في الشعر العربي، ص١٩.

(٢) مجلة حراء، العدد (٢) (يناير– مارس) ٢٠٠٦ م.

(٣) اللغة واللون ، ص١٣.

صـــناعية، دبـــت الحـــياة في الكون، وحينئذ يكتسب أثاثنا الخالي من الحياة معنى، فتسرى الروح في الأرفف البنية، والمنضدة الرمادية، والأكواب الخضراء، والبسط والمفـــارش والســـتائر، حتـــى حقول القمح تكتسي باللون الأصفر وقت الحصاد، والجـرار الفخاريـــة الزرقاء، والملابس التي تستر أجسادنا، والأشجار الخضراء الـــزاهية التـــي تحـــيط بها النباتات وتظللها السماء الزرقاء... كل هذا يصبح بهاء وحيوية حين تزينه الأوان.(١)

ولكـــن.. كيف ترى العين الألوان؟ " إن أي جسم معرض للضوء يمتص بعـــض الإشـــعاعات ويعكـــس البعض الآخر، ولون هذا الجسم هو لون الإشعاع المـــنعكس مـــنه.. فالفســـتان أحمر لأنه امتص كل إشعاعات الضوء الساقطة عليه وعكس إلى عيوننا الإشعاعات الحمراء، وتنقل العين هذه الإحساسات إلى المخ عن طـــريق مجموعة الأقماع الشبكية الخاصة باللون الأحمر، وبذلك يتكون الإحساس باللـــون الأحمـــر، وكـــذلك المياه تبدو زرقاء لأن ضوء الشمس يعاني الانعكاسات الانكســـارية أثـــناء مروره في طبقات الجو المختلفة في رحلته إلى الأرض، بحيث تصـــل إليـــنا الإشعاعات الزرقاء فقط؛ ولهذا السبب أيضا يبدو البحر أزرق اللون، بيـــنما تـــبدو أمواج البحر بيضاء بسبب احتوائها على فقاقيع الهواء التي تعكس كل الأشعة الضوئية ولا تمتص منها شيئًا " (٢).

فـــإذا ما انعكست الألوان تجاوبت معها النفس وابتهجت أو حتى انقبضت وهـــو مـــا يعـــرف بالإدراك النفسي، فضلا عن آثارها في حياة الفن، والموضة، والتجارة، والانفعالات النفسية والعاطفية.

---

(١) مجلة حراء، الأوان والإنسان.

(٢) الألـــوان فـــي القرآن، د. محمد السقا عيد، ص١٢،موقع الإعجاز العلمي في القرآن والسنة:

http//www. Ssa.net /firas/Arabic/index. Php? Page =show det &id = 818& select page =12.

علـــى ســـبيل المـــثال تعتبر الألوان: الأحمر والبرتقالي والأصفر ألوانا ســـاخنة، بيـــنما تشـــير الألوان الأزرق والأخضر إلى الإحساس بالأمان والهدوء والســـلام، أما الألوان البني والرمادي والأسود فهي تثير الحزن والإحباط والقنوط، وإن ظلت هذه المفاهيم فردية تختلف من فرد إلى آخر.(١)

إلاّ أن أهمـــية الألوان لا ترجع إلى كونها مصدرًا لإبهاج النفس أو حتى إحباطها أو أنها تستخدم في العلاج النفسي.(٢) بل تعدت ذلك بكثير حيث استخدمت منذ أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر كرموز إيحائية أو علامات لها دلالة لغوية كمـــا أشرت من قبل إلى إشارات المرور بألوانها الحمراء والخضراء والصفراء، حـــيث كل لون يتحدث بلغة الأمر: قف ، سر، استعد، وقد يتحول لون اللباس إلى دلالة على شريحة معينة من الناس.

وقـــد تحمـــل الألـــوان دلالـــة سياسية معينة خاصة إذا ما ارتبطت بعزة الأوطـــان وكـــرامتها فاصطبغت بها الألوية والرايات والأعلام، مرتفعة خفاقة في ســـماء الدول، لتصبح رمزًا للسيادة الوطنية وبسط اليد على الأرض، حيث يعطى لون كل لواء أو راية أو علم دلالة معينة.

ومـــن هنا وجدنا نشر الألوية والرايات وتلوينها بألوان معينة من شارات الملـــك فـــي كـــل زمان. يقول ابن خلدون": وأما تكثير الرايات وتلوينها وإطالتها فالقصد بها التهويل لا أكثر، وربما تحدث في النفوس من التهويل زيادة في الإقدام، وأحوال النفوس وتلويناتها غريبة، والله الخلاق العليم.

ثـــم إن الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات فمنهم مكثر ومنهم مقـــل بحســـب أتـــباع الدولة وعظمها. فأما الرايات فإنها شعار الحروب من عهد

---

(١) مجلة حراء، العدد(٢)، ٢٠٠٦.

(٢) انظر: اللغة واللون، ص١٥٠ وما بعدها.

الخليقة ولم تزل الأمم تعقدها في مواطن الحروب والغزوات لعهد النبي(K) ومن بعده الخلفاء[١]

فقد كان الرسول (K) يعقد بيده ألوية ورايات الغزوات والفتح ويسلمها إلى قادة السرية والجنود الذاهبين إلى الجهاد المقدس. وقد اختار الرسول الأعظم اللون الأبيض لألويته واللون الأسود لراياته، الأول كرمز للطهر والسلام وهما من شعائر الإسلام، والأسود رمز للقوة والرهبة للأعداء.[٢]

وفي عهد الخلفاء الراشدين انضوى المسلمون تحت راية الإسلام وأضافوا لها رايات أخرى، فكان لعمر بن الخطاب راية تسمى الخطرية، وكان لعلي بن أبي طالب راية سوداء تسمي الجموح، وفي الدولة الأموية صار اللون الأبيض لونًا رسميًّا، مضافا إليه اللون الأخضر، واللون الأبيض كان يرمز إلى الصفاء والنقاء والطهر، إشارة إلى مبادئ الإسلام، حتى صار الأمويون يلقبون بالمبيضة أو أصحاب اللون الأبيض.[٣]

أما خلفاء الدولة العباسية فقد تخيروا السواد لونًا للباسهم ولألويتهم وراياتهم، إضافة إلى العديد من الرايات البيضاء والخضراء والحمراء التي حملت دلالات مختلفة في هذا العصر، وهو ما سوف نتناوله بالتفصيل في هذه الدراسة التي تقوم على الألوان ودلالتها السياسية في العصر العباسي. مركزين على ألوان أربعة هي: الأسود، والأبيض، والأخضر، والأحمر، مرتبة حسب أهمية كل لون، وقد اقتصرنا عليها لأنها الألوان التي اصطبغت بها الألوية والرايات وحتى اللباس دون غيرها من الألوان الأخرى.

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص٢٥٨، ٢٥٩، والراية هي العلم، أم اللواء فهو العلم وهو دون الراية، ولواء الجيش علمه، انظر المصباح المنير والمعجم االوسيط مادة(ر ى ى) و(لوى).

(٢) راجع نهاية الأرب للنويري، ص١٧، وهو جزء خاص بغزوات الرسول وفتوحاته، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

(٣) الرايات والأعلام، بقلم شكري شيخانى، صحيفة دينا الوطن www.alwatanvoice.com.

اللــون الأســود

الأســود أغمق الألوان ، وهو في الحقيقة سلب اللون وهو نقيض الأبيض فــي كــل خصائصــه[١]، فهو كل ما دكن لونه ومال إلى الظلمة[٢]. ولقد استخدم العرب للدلالة على السواد عشرات الكلمات[٣] منها ما يدل على مجرد اللون ومنها ما يدل على المبالغة والشدة، ومنها ما يرتبط بموصوف معين، ومنها ما يشير إلى لــون آخر اختلط بالسواد. كما أنهم وصفوا السواد بمجموعة من الصفات ترتبط به وحده، أو به مع غيره.

فاستخدموا للأسود الصرف أو الشديد السواد كلمات مثل: حليب- حلوب- حُلــبوب- أدجــن- أدعج - أدلم - أدغم - أدهم - أسحم- أطلس- فاحم- فحيم - أبغس- بهيم - حالك - مُحلوك - أحم- يحموم- حلْكم - حِمحم - حانك- دُغمان- سُحكوك- أسحمان- علجم- علجوم- غرابي...

وللأســود القبيح استخدموا: سُخام - سخامي- أسخم - دُحمسان- زمح- زومح- كلع...

وللأســود العظــيم استخدموا: دُحْمُسان- دحامس - دُخْشم- دخشماني- دخامش.

ووصــفوا الســواد بصفات مثل: أسود حالك للمبالغة في السواد، وكذلك أســود أحــم وفــاحم وقاتم، وغربيب، وخُداري ، ودَجوجي ، وديجوج ، ودامج ، ومسحنكك ، ومُصلجم - ومعلنكس ، ومعلنكك.

---

(١) اللون في الشعر العربي قبل الإسلام: إبراهيم محمد علي ص١٦٥.

(٢) ألفاظ الألوان في العربية، د. عاهد الماضي، ص١٣٧.

(٣) اللغة واللون: د: أحمد مختار عمر، ص٤٥، وما بعدها، وانظر: قاموس الألوان عند العــرب ، د. عبد الحميد إبراهيم، مواطن متفرقة، وفقه اللغة وسر العربية للثعالبي، ص١٠٣، وما بعدها.

وخصـــوا اللـــيل إذا كـــان أســـودا حالكا بصفات منها: دجوج، دجوجي، ودُجاجي، ودَجاجي، ودَجداج، وأسدف.

وفي سواد الشفة استعملوا: اللعس فهي لعساء، واللمي فهي لمياء، وسموا السود الشفتين:الأظمي.

ومع سواد الشعر استعملوا: الغدافي والفحيم.

وعبروا عن السواد مع الشحوب في الوجه بلفظ: أسعغ

وعبروا عن السواد إذا مال إلى الخضرة بكلمات مثل: أحوى وأقهب.، وقهب.

وعن السواد إذا اختلطت به الصفرة بكلمات مثل: أصحم.

وإذا اختلطت به الحمرة بكلمات مثل: أصدأ.

وعبروا عن اللون بين السواد والغبرة بلفظ أطلس وكَدر وأكدر.

وعـــن الســـمرة إذا تجاوزت إلى السواد أو عن السواد الخفيف بالأصحم والأطهم، والأقتم، والقاتم.

وبـــرغم كثرة الألفاظ والمترادفات الدالة على السواد في اللغة العربية إلا أن هـــذا اللـــون ظل مرتبطًا في العقل العربي بكثير من المعاني السلبية في الحياة الاجتماعـــية كالحـــزن والتعاسة والألم والموت والخوف من المجهول، حتى وجدنا كثيـــرا من الشعوب يعتبرون " كلمة السواد ومشتقاتها من الكلمات المحظورة التي تتجـــنب نطقها تشاؤمًا من ذكرها، لما هو مستقر في نفوس العامة من اعتقاد وجود علاقة بين اللفظ والمواقف المرتبطة به أقوى من مجرد الدلالة. فلفظ الموت عندهم مجلبة للموت ولذا يتجنبونه، ولفظ الخراب مجلبة للخراب ولهذا يهربون من نطقه.. وهكذا، وحين يضطرون إلى استعمالهما هما وأمثالهما يتبعونها بكلمات بعدها مثل: "كفـــى الله الشـــر"، "بعد الشر" لدفع الكارثة الكامنة وراءها ولهذا نجد في التعابير المصـــرية جمـــلا مـــثل:" يا خبر أبيض" كناية عن الخبر السيئ، "يا نهار أزرق"، والمـــراد أســـود. كمـــا نجـــد في التعابير المصرية جملا مثل:" يا نهار أسوح " ،

" يا نهار إسوخ" بتحريف كلمة "أسود" عن طريق إبدال بعض حروفها تجنبًا للنطق بها..." [١] ، كل هذا ربما عززه المعتقد الديني في الإسلام، حيث ورد اللون الأسود فـــي القرآن سبع مرات خمس منها ارتبطت بالوجه وما يتحول إليه من سواد – في الدنيا والآخرة– نتيجة سوء الفعال!

قال تعالى:

"يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ" [آل عمران:١٠٦].

و" تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ "[الزمر:٦٠].

و " وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ" [النحل:٥٨].

كما تجاوزت كلمات الأسود في الحديث النبوي المائة، إذا أخرجنا منها ما جاء بمعناه الحقيقي نجد معظم الباقي يشير إلى أشياء مكروهة أو منفرة.[٢]

فقـــد كرهت الأحاديث النبوية لون السواد في الملبس ونفرت منه، ونهت عـــن الاختضـــاب بالســـواد، واستخدمت الأحاديث السواد للوجه بمعنى الخسران والخذلان وسوء المصير!

كمـــا استخدمت السواد مع القلب للإشارة إلى الحقد والضغينة كما استعاذ الرســـول(K) من اللون الأسود ، ووصف الفتن والظلم بالسواد، كما ورد في الأثر أن الحجـــر الأســـود قد نزل من الجنة أشد بياضًا من الثلج، وأنه اسود من ذنوب العباد وخطاياهم ، كما أن اللون الأسود يمثل الخطيئة في الكتاب المقدس.[٣]

---

(١) اللغة واللون ، د. أحمد مختار عمر، ص ٢٠١.

(٢) معجم ألفاظ الحديث (سود) .

(٣) اللغة واللون، ص٢٢٤.

ومن هنا وجدنا المعتقدات الدينية تعمق من هذه الانطباعات التشاؤمية حين استخدمت اللون الأسود في كل ما هو منفر مكروه، فأصبحنا نجد اللون الأسود في حياتنا يستخدم للإشارة إلى الأمور الثقيلة والخطيرة (مكيدة سوداء)، أو المتسخة والملوثة (أيدي سوداء)، أو المكر والخبث والشر (أفعال سوداء) ، أو الأشياء ذات الأثر السلبي (علامة سوداء في سجل المرء)، أو الأمور الغيبية أو الشيطانية (سحر أسود)، أو الأحداث والمشاعر الحزينة واليائسة والمصائب(اليأس الأسود)، أو العداوة والغضب والتجهم(الحقد الأسود)، أو الأمور المشوهة والسخرية الشاذة (الفكاهة السوداء)، أو عمليات الاستخبارات السرية (المهام الحكومية السوداء).

كما يسجل لنا التاريخ أن جماعات مثل:" جماعة اليد السوداء"، و"جماعة الأوجه السوداء"، و"جماعة الستر السوداء" دأبت على العنف والتخريب، وتعد جماعة "الستر السوداء" التابعة للزعيم الفاشي موسوليني أهمها على الإطلاق، فبعد طرد هذه الجماعة على إثر انقلاب عام ١٩٤٣م، تجنب الناس ارتداء القمصان السوداء.(١)

ولكن رغم كل هذه الدلالات السلبية التي يصطحبها اللون الأسود إلا أنه أحيانا ما يعبر عن النبل والرقي والتميز في عالم الديكور(٢)، كما يعتبر في عالم الأزياء ملك السهرات حتى أن بعض بيوت الأزياء يصنعون أثواب الزفاف من اللون الأسود(٣) كما يعتبر لون السلطة والقوة.(٤)

---

(١) مجلة حراء: العدد (٢) (يناير- مارس)، ٢٠٠٦، لمليح مراد: الألوان والإنسان، مجلة علمية ثقافية فصلية. دمشق.

http//: www. Hira magazin. Com /archives-show. php?id=39&Issue=2

(٢) المرجع نفسه.

(٣) شبكة فنون: اللون الأسود http//www. Fonon. nte.

(٤) مجلة عشرينات بتاريخ ٢٠٠٤/٣/٨(لون يفرحك ولون يغمك) .

http// www. 2oat. Com.

وبرغم كل هذه الدلالات السلبية الكثيرة للون الأسود نجد أن العباسيين قد اتخــذوا مــن الســواد شعارًا لهم، فكانت راياتهم سوداء، كما كان لباسهم الرسمي وقلنسوتهم سوداوين، وربما ظهر اللون الأسود لهذه الدولة بعد مقتل إبراهيم الإمام مفجــر الــثورة العباســية حــيث لبس أعوانه السواد حزنا عليه، جاء في الأخبار الطــوال:" وحان الوقت الذي واعد فيه أبو مسلم مستجيبه، فخرجوا جميعًا في يوم واحــد من جميع كورخراسان حتى وافوه، وقد سوّدوا ثيابهم تسليا على إبراهيم بن محمد علي بن عباس الذي قتله مروان فكان أول من ورد عليه من القواد وقد لبس الســواد أسـيِّد بن عبد الله، ومقاتل بن حكيم، ومجفن بن غزوان، والحَريش مولى خزاعة، وتنادوا محمد يا منصور يعنون محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو أول مــن قام بالأمر وبث دعاته في الآفاق وانجفل الناس على أبي مسلم من هراة وبوشــج، ومــرو الــروذ، والطالقان، ومرو، ونسأ، وأبيورد، وطوس ونيسابور، وســرخس، وبلــخ، والصــغانيان، والطخرستان، وختلان وكش، ونسف، فتوافدوا جمــيعا مسودي الثياب وقد سودوا أيضا أنصاف الخشب التي كانت معهم، وسمعوا كافر كوبات.(١) فتسويد الثياب كان حزنا لمصابهم في الإمام وتسليا عليه.

وبعض الآراء الأخرى ترى أن إبراهيم الإمام هو نفسه الذي اختار اللون الأســود للدولــة العباســية قبل أن تقوم وقبل أن يموت " فقد جاء في كتاب أخبار العباس وولده على لسان إبراهيم الإمام لأبي هاشم:" إذا شارفتم الثلاثين والمائة نجم حقكم ثم لا يزال في نماء وظهور دعوتكم في البلاد كلها والسواد يا أبا هاشم لباسنا ولــباس أنصارنا وفيه عزنا.. كانت راية رسول الله(K) سوداء، وكانت راية علي بــن أبــي طالــب سوداء، فعليكم بالسواد فليكن لباسكم، وليكن شعاركم يا محمد يا منصــور.." وفي مناسبة أخرى أمر إبراهيم أبا هاشم أن يأمر الشيعة بتسويد الثياب

---

(١) الأخبــار الطــوال، للدينوري، تحقيق د.عمر فاروق الطباع، ص٣٣٦، دار الأرقم، بيروت، لبنان.

ولرايات السود، ويعدوها إلى وقت خروجهم".[1]

ويبدو أن نبوءة إبراهيم الإمام قد تحققت في التاريخ المشار إليه بعد قتله. جـــاء في تاريخ الإسلام السياسي:" ظل أمر العباسيين سرًّا لا يعلمه إلا النقباء من شيعتهم حتى وقع في يد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، كتاب إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم العربية بخراسان، فأدى هذا الحادث إلى القــبض علـــى إبـــراهيم وسجنه في حران وقتله، فتولى الدعوة العباسية أبو سلمة الخـــلال، ولما علم إبراهيم الإمام أنه لا نجاة له، ولى عهده أخاه أبا العباس عبد الله بـــن محمد، وأوصاه بمواصلة الدعوة والمسير إلى الكوفة، ولما قتل إبراهيم الإمام ســـار رســـوله إلى الحميمة، وسلم وصيته إلى أبي العباس، فتوجه هذا إلى الكوفة، ومعـــه كبار بني هاشم من ولد العباس، وفيهم أخوه أبو جعفر المنصور، وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد، وعمه عبد الله بن علي.

وبعـــد ذلـــك حلت الهزيمة بيزيد بن عمر بن هبيرة قائد الأمويين بظاهر الكـــوفة، وأرغم على السير إلى واسط، فجاء أبو سلمة، ونزل بجنده بمدينة الكوفة في أوائل ١٣٢هـــ من غير أن يلقى مقاومة تذكر.

وفـــي أواخـــر هذه السنة خفق العلم الأسود شعار العباسيين فوق حصون دمشق، بعد أن دالت فيها دولة الأمويين"[2]

ومن هنا وجدنا اللون الأسود يصبح رمزًا للدولة يمثل مرجعيتها ومن ثم تصـــبح دلالة السواد رمزًا للحزن على قتل آل البيت وتمثل جزءًا من الحقيقة ولا

---

(١) بحـــوث في التاريخ العباسي، د. فاروق عمر، ص٢٤٤، ٢٤٥، دار العلم والطباعة بيروت، مكتبة النهضة بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٧٧.

(٢) تاريخ الإسلام السياسي، د. حسن إبراهيم حسن، جـــ٢، ص٢١. دار الجيل بيروت، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، ١٤١٦هـــ، ١٩٩٦م.

تمـــثل الحقــيقة كاملة، لأن إظهار الحزن قد يتطلب تسويد الملابس وخلافه أما أن يتشح راية وعلم الدولة بالسواد فلابد أن تكون له دلالات سياسية، ترتبط بالمرجعية التـــي تعطي الشرعية لهذه الدولة، ومن ثم وجدنا هَمّ بني العباس من البداية يتمثل فـــي محاولـــة إضفاء الشرعية الإسلامية على دولتهم من خلال توضيح ارتباطهم الوثـــيق وامتدادهم للأسرة التي نزل فيها الرسول الكريم (K)، وعلى رابع الخلفاء من بعده، بالإضافة إلى محاولة إحياء السنة، ما كان يصنعه الرسول (K) والخلفاء صـــنعوه، فـــي مقابـــل ما ضيعه الأمويون من عدم الالتزام بالسنة، بالإضافة إلى الـــبحث عن وجود بعض النصوص الدينية التي تبشر بحكمهم، حتى يصبح حكمهم كأنه قدر مكتوب على المسلمين كما جاء في هذا الحديث المنسوب لابن عباس، قال الدارقطنـــي فـــي الأفـــراد: حدثنا عبد الله بن عبد الصمد المهندي، حدثنا محمد بن هـــارون الســـعدي، حدثنا أحمد بن إبراهيم الأنصاري عن أبي يعقوب بن سليمان الهاشمي، قال: سمعت المنصور يقول: حدثني أبي عن جدي عن ابن عباس رضي الله عـــنهما، أن النبي(K) قال للعباس: إذا سكن بنوك السواد، ولبسوا السواد وكان شيعتهم أهل خراسان لم يزل الأمر فيهم حتى يدفعوه إلى عيسي بن مريم" (١)

وعـــن المنصور أيضا قال: رأيت كأني في الحرم، وكأن رسول الله (K) فـــي الكعبة، وبابها مفتوح فنادى مناد أين عبد الله، فقام أخي أبو العباس حتى صار على الدرجة فأدخل فما لبث أن خرج ومعه قناة عليها لواء أسود قدر أربعة أذرع، ثـــم نـــودي: أين عبد الله، فقمت على الدرجة، فأصعدت وإذا رسول الله(K)، وأبو بكر وعمر، وبلال ، فعقد لي وأوصاني بأمته، وعممني بعمامة، فكان كورها ثلاثة وعشرين، وقال: خذها إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة " (٢)

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص١٦، المكتبة التجارية، الطبعة الأولى ١٩٦٩م.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص٢٦٠.

وهكـــذا وجدنا العباسيين يقدمون تبريرات دينية لقيام دولتهم ودوام ملكهم، تضـــمنت هذه التبريرات ألوان ألويتهم وراياتهم، التي لم يتخيروها بل تخيرها لهم رسول الله (K).

وبالإضـــافة إلـــى هـــذه التبريـــرات الدينية قدموا أيضا بعض التبريرات السياسية التي تبرر اختيار اللون الأسود لألويتهم أو راياتهم ومنها:[١]

١- أن رايـــة الرســـول(K) وعلي بن أبي طالب كانتا سوداوين وأن الرسول عقد للعباس يوم حنين والفتح راية سوداء.[٢]

٢- أن ســـهم عبد المطلب جد النبي(K) حين تنازع مع قريش على بئر زمزم كان أســـود بينما كان سهم قريش أبيض وسهم الكعبة أصفر كما وأن الذي يميز بني عبد المطلب هو لبس السواد.

٣- تـــذهب روايـــة إلـــى أن الأنصار لبسوا السواد بعد معركة أحد، وأن أبا هاشم قـــال:" لقد تتابعت على آل الرسول(K) مصائب لا ينكر معها لأشياعهم لباس السواد حتى يدركوا بثأرهم.

إلا أن هـــذه الأســـباب ثانـــوية إذا ما قيست بسبب آخر ألا وهو انتشار المـــنامات والملاحـــم بـــين الناس والتي كانت تتنبأ بظهور الأعلام السود من قبل المشـــرق وأن هذه الرايات هي المنتصرة. ففي الطبري[٣] أن أبا جعفر عيسى قال

(١) بحوث في التاريخ العباسي، ص٢٤٤.

(٢) صـــبح الأعشى: لأبي العباس القلقشندي، تقديم د.فوزي محمدين، جـــ٣، ص٢٧٤، وانظـــر: نهايـــة الأرب للنويري، جـــ١٧، ص ٢، ٦ ، ١٢٦، ١٣٩، ١٥٥، ١٦٥، ٢٧٨، ٢٨٣، ٢٩٧، والتـــي مـــن خلالها يتضح أن ألوية الرسولK كانت في الغالب بيضـــاء، أما راياته فكانت في الغالب سوداء، وكثيرا ما كان يعقد لعلي بن أبي طالب الراية السوداء

(٣) تاريخ الطبري، جـــ٣، ص٣١٢.

لنصر بن سيار والي خراسان:" أيها الأمير حسبك من هذه الأمور والولاية فإنه قد أطـــل أمـــر عظيم سيقوم رجل مجهول النسب يظهر السواد ويدعو إلى دولة تكون فـــيغلب علـــى الأمر وأنتم تنظرون وتضطربون" وقد أكد أبو هاشم بكير بن ماهان أهميـــته حين قال:" إن عز هذه الدولة فيه ولا تزال دعوة بني هاشم عزيزة ما لبس السواد أهلها".(١)

وكانت الملاحم والنبوءات ذات أثر كبير على الناس الذين شغلت أذهانهم بها. يقول اليعقوبي:" ولما قتل زيد بن علي تحركت الشيعة بخراسان وظهر الدعاة ورويت المنامات وتدورست كتب الملاحم" (٢)

ولم تكن الرايات السود بدعة عباسية جديدة، فقد رفعها الحارث بن سريج المرجـــئ حين ثار على بني أمية سنة ١١٦هـــ في بلاد ما وراء النهر وخراسان، ولـــم يستغل العباسيون شعار الحارث الأسود فقط بل استغلوا كذلك اسمه بعد تعديل بســـيط. فبعد أن كان المنقذ الذي سيظهر يدعى"الحارث" أصبح يدعى"ابن الحارثية" وهو عبد الله بن محمد بن علي أبو العباس(٣)

وقـــد اســـتعمل الخوارج أمثال بهلول الخارجي سنة ١١٩هـــ وأبي حمزة الخارجي سنة ١٢٨هـــ السواد شعارًا لهم قبل ظهور الدعوة العباسية(٤)

ويـــذهب بعض المؤرخين إلى أن السواد كان رمزًا للحزن على قتلى أهل البـــيت، يقـــول ابن خلدون:" وبما اختص به الخليفة من الألوان لرايته كالسواد في رايـــات بنـــي العباس، فإن راياتهم كانت سُودًا حزنًا على شهدائهم من بني هاشم، ونعيًا على بني أمية في قتلهم ولذلك سُموا المسودة".(٥)

---

(١) أخبار العباس وولده، ص١١٨.

(٢) اليعقوبي، جـــ٢، ص٣٩٣.

(٣) بحوث في التاريخ العباسي، ص٢٤٥.

(٤) الطبري، جـــ٢، ص٢٧٠، الكامل لابن الأثير جـــ٥، ص٢٨٥.

(٥) مقدمة ابن خلدون، ص٢٥٩.

وقد يصح ذلك بالنسبة إلى الملابس أما الرايات فليس هناك ما يؤيد كونها علامـــة للحـــزن، ولكنـــنا نعتقد بأن اتخاذ السواد في العهد الأموي، من قبل الفرق المعارضـــة كـــان مناسبًا جدًّا؛ لأنه كان يتفق مع اللون الذي اتخذه الرسول(K) في حـــروبه مع قريش وأهل الكفر.[١] وكان يتناسب واللون الذي تتنبأ الملاحم بظهوره في المشرق وأنه سوف لا ينخذل حتى يقضي على أهل الجور(الأمويين) كما وأنه رمـــز للاحتجاج على الطغيان والتحدي للضلالة والانحراف عن العدل، وأكثر من ذلك فإن هذا اللون كان له مغزى آخر ينبئ بأن عهدًا جديدًا سيبدأ وأن آمالا وأماني طال انتظارها سيتحقق.

وأخيـــرًا وليس آخرًا فقد كان السواد في الجاهلية رمزًا للثأر[٢]، ولعل في ذلك علاقة بالثأر لآل البيت من الأمويين ولقد سميت الدولة العباسية بدولة المسودة حتى أن ملابسهم وقلانسهم كانت سودًا، ولعل الخليفة المنصور كان أول من ابتدع عادة لبس القلنسوة السوداء الطويلة في البلاط ودواوين الدولة[٣]. وقد علق الشاعر أبو دلامة على ذلك قائلا:

وكنا نرجي في أمير زيادة　　　فزاد لنا فيها بطول القلانس[٤]

حـــيث أصبح اللون الأسود يمثل رمزًا وعقيدة راسخة للدولة حتى أننا لا نعجب كثيرًا إذا وجدنا أبا مسلم الخرساني يأمر والي خراسان بقتل أحد الأشخاص الـــذين تعرضوا علانية للسواد وهزئوا به.[٥]، وكان اللون الأسود في عهد المتوكل هو لواء العهد الذي يعطى لولي العهد.[٦]

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري، ص١١٢.

(٢) الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، جـــ٨، ص٧٥.

(٣) بحوث في التاريخ العباسي، ص٢٤٦.

(٤) تاريخ بغداد، جـــ١٢، ص١٤٢، وفيات الأعيان، جـــ٢، ص١٣٠.

(٥) بحوث في التاريخ العباسي، ص٢٤٦.

(٦) تاريخ الطبري، جـــ٣، ص١٩٥.

أما بالنسبة لأعداء الدولة العباسية فقد كان السواد موضع سخرية وازدراء حـيث تشـير بعض الروايات إلى موقف أهل الشام من اللون الأسود واستهزائهم به.[١]

وقـد سـميت الخـرمية الـدين الإسـلامي (بالـدين الأسود) باعتباره ديـن(المسـودة) العباسـيين، أمـا دين هؤلاء الخرمية المجوس فقد سموه (بالدين الأبيض) تمييزًا له عن الإسلام.[٢]

ومـن هـنا وجدنا أن اللون الأسود أصبح لونًا سياسيًّا في الدولة العباسية يسـتند إلـى مرجعية دينية من خلال ما روي عن الرسول(K)، فهو لون الألوية ولـون الـرايات حتى ولون الملابس والقلانس للخلفاء والوزراء والعلماء ومن له صلة بخليفة أو والي أيضا.

كمـا أنه أصبح لونًا للولاء للعباسيين حيث كان العباسيون إذا دخلوا مدينة أو مصـرًا فسـود أهلـه فعرف هذا بولائهم للعباسيين. فكما جاء في الكامل لابن الأثيـر:"وقـدم عـبد الله بن علي على حران فلقيه إبان مسودًا فبايعه له ودخل في طاعـته فأمنه" [٣]. وجاء فيه أيضا:" وأقام عبد الله بن علي في دمشق خمسة عشر يوما ثم سار إلى فلسطين فلقيه أهل الأردن وقد سودوا.." [٤]

ومـن هنا وجدنا الدولة العباسية مصبوغة بالسواد للحجج التي ذكرنا قبل ذلك؛ ولأنه لون الوقار والهيبة كما روى أيضا.

فعـندما سـأل رجل أبا مسلم الخرساني: ما هذا السواد الذي أرى عليك؟ فقـال: حدثنـي أبو الزبير عن جابر بن عبد الله أن النبي(K) دخل مكة يوم الفتح وعلـى رأسـه عمامـة سوداء، وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة.. يا غلام اضرب عنقه"[٥] وضربت عنق السائل.

---

(١) انظر الطبري، جـ٣، ص٣٦٢.

(٢) انظر الطبري، جـ٣، ص١٢١١.

(٣) الكامل لابن الأثير، جـ٤، ص٢٣.

(٤) نفسه، ص٢٣١.

(٥) الكامل لابن الأثير، صـ٣٥٦.

اللـــون الأبيـــض

أحد الألوان وهو ضد الأسود، والمقصود باللون الأبيض، اللون كما نراه فـــي اللـــبن بعـــد التجـــبن، والضوء الأبيض كذلك[١]، والشفافية واللمعان والبريق والصفاء، ولذلك توصف الكئوس الزجاجية بالبياض ويقصد صفاؤها[٢]

وقـــد جـــاء في اللغة العربية لهذا اللون عشرات الألفاظ التي تحدد صفاته ودرجاتـــه، فقال العرب: أبيض، وأكدوه بقولهم أبيض يقق، ويلق، ولياح، ووابص ومشـــرق، وبـــراق، ودُلامص، وهجان، وحُر، وقالوا للأبيض الخالص: الأزهر، والأغـــر،والأبلج، والأقمر، والنعج، والصرح، وللأبيض يخالطه شيء من الشقرة قالـــوا: أقهب وأعيس، وللأبيض يعلوه سواد: أملح وأشهب، وللأبيض يضرب إلى الخضرة: أبغث، وللأبيض القبيح أمقه وأمهق وأبرص..[٣]

ولقد دل اللون الأبيض على الطهارة والنقاء والصدق، وهو يمثل "نعم" في مقابل "لا" الموجودة في الأسود، إنه الصفحة البيضاء التي ستكتب عليها القصة إنه أحد الطرفين المتقابلين، إنه يمثل البداية في مقابل النهاية والألف في مقابل الياء[٤]، ولهـــذا استخدمه العرب القدماء في تعبيرات تدل على ذلك، فقد قالوا: كلام أبيض، وقالـــوا: يـــد بيضاء، واستخدموا البياض للمدح بالكرم ونقاء العرض من العيوب. ولارتباطه بالضوء وبياض النهار استخدموه في تعبيرات تدل على ذلك، فقد قالوا: كتيـــبة بيضـــاء، علـــيها بـــياض الحديد، وأطلقوا على الحنطة وعلى الشمس، اسم البيضـــاء وقالوا: الأيام البيض لليالي ١٣، ١٤، ١٥، لأن القمر يطلع فيه من أولها إلى آخرها.[٥]

---

(١) اللون في الشعر العربي قبل الإسلام، إبراهيم محمد علي ص١٢٩، ١٣٠.

(٢) الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني، ص٢٢٣.

(٣) انظر: فقه اللغة وسر العربية للثعالبي، ص٩٧، وما بعدها.

(٤)اللغة واللون، د. أحمد مختار عمر، ص١٨٥، ١٨٦.

(٥) اللغة واللون، ص٦٩.

أمــا من الناحية الدينية فقد كان اللون الأبيض منذ العصور القديمة مقدسا ومكرســا لإلــه الرومان Jupiter، وكان يضحى له بحيوانات بيضاء، ولأن اللون الأبــيض يرمــز للصفاء والنقاوة فإن المسيح عادة ما يمثل في ثوب أبيض. وكثر ورود هذا اللون في الكتاب المقدس للتفاؤل والإشراق.(١)

وقــد ورد لفظ الأبيض في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة، ورد بعضها بمعــناه الحقيقــي وبعضها الآخر رمزًا للصفاء والنقاوة، أو رمزًا للفوز في الآخرة نتيجة العمل الصالح في الدنيا:

" وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " [آل عمران: ١٠٧]

" وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ " [يوسف: ٨٤].

" يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ " [آل عمران: ١٠٦].

" وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ" [البقرة:١٨٧]

" وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ " [الأعراف:١٠٨]

" وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ" [طه:٢٢].

" وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ " [النمل:١٢].

" اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ " [القصص:٣٢].

" بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ " [الصافات:٤٦].

" وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ " [فاطر:٢٧].

إن دلالة اللون الأبيض في الآيات الكريمة توحي بالإيمان والصفاء والنقاء والطهــارة والحزن الصادق، كما تشير إلى ميقات زمني، يحدد بدء شعيرة تعبدية، وصفة شراب أهل الجنة.

---

(١) السابق، ص٢٢١.

وهــو فـــي الطبيعة لون متميز من صخر الجبال " **جُدَدٌ بِيضٌ** "، يدل على مقـــدرة الخالـــق في الحجر الذي تعددت ألوانه، فاللون الأبيض في كل ذلك محبب مـــريح للـــنفس ولهذا حمل نفس الدلالة في الحديث الشريف " إذ ورد ما يقرب من مائة مرة يهمنا ما تحمله من إشارات ودلالات اجتماعية"[١]

١- فقد جاء بعضها رمزا للنقاء والبراءة والطهر:

- فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ.
- وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيما.

٢- وجاء بعضها مرتبطا ببعض العقائد أو المأثورات الدينية :

- أتيت البراق وهو دابة أبيض طويل.
- إن حوضي لهو أشد بياضا من الثلج.
- أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة.
- أمرهم بصيام ثلاثة الأيام البيض.
- نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن.
- أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء.
- رجل شديد بياض الثوب.. (المراد جبريل).

ولعـــل هـــذا هو السبب في اختيار اللون الأبيض عند المسلمين لباسا أثناء الحـــج والعمرة، وكفنًا للميت، وثوبًا للعرس. كما كان السبب في ميل الرسول(K) إلى اللون الأبيض في الملابس والثياب:

- البسوا من ثيابكم البيض.
- أتيت النبي وهو نائم على ثوب أبيض.
- إني لأحب أن أنظر إلى القارئ أبيض الثياب.
- النبي عليه ثوب أبيض.

---

(١) الصـــحيفة نفسها وما بعدها. وانظر: ربيع الأبرار، وفصوص الأخبار، للزمخشري، جـــ٣، ص٤٦٩ وما بعدها.

- البسوا من ثيابكم البياض فإنها خير ثيابكم.
- أحسن ما زرتم الله في قبوركم ومساجدكم البياض.
- خير ثيابكم البياض.
- فكسا الزبير رسول الله (K) وأبا بكر ثياب بياض.
- كمـــا أنه ربما كان السبب في اختيار الرسول(K) إياه لونا للوائه حين فـــتح مكـــة:" أن النبـــي (K) دخـــل مكة يوم الفتح ولواؤه أبيض" وفي صفة الملة الإسلامية بالبياض:" لقد تركتكم على المحجة البيضـاء".

٣- كما أن هناك إشارات في بعض الأحاديث النبوية إلى بياض الوجه في الدنيا والآخرة بمعنى الابتهاج والسعادة نتيجة الإحساس بالنجاح والفوز.

- إن أول صدقة بيضت وجه رسول الله.
- ألم يثقل الله موازيننا ويبيض وجوهنا.

وهـــناك إشـــارات فـــي بعضـــها الآخر إلى بياض الحسنات لما تبعثه في النفوس من الابتهاج وفي الوجوه من بياض وإشراق.

- بحسنات أمثال جبال تهامة بيضا"

فـــإذا كـــان اللـــون الأبيض من حيث دلالته الدينية يعطي الطهارة والنقاء والصفاء وكلها أشياء تبعث في النفس الطمأنينة وتجعلها تحس بالأمان، فإن توظيف هـــذا اللون من الناحية السياسية، ربما يخرج عن هذا المفهوم، فالرسول الكريم في غـــزواته وفتوحاته كان يرفع في الأغلب الرايات البيضاء التي تدل على أن الدين الإسلامي دين أمن وسلام واطمئنان لكل من يدخل فيه أو يتعايش معه. وربما حمل هـــذا اللـــون نفس الدلالة السياسية في العصر الحديث فنجد من يقول "ثورة بيضاء" وهو يقصد مسالمة لم يرق فيها دماء، أو رفع الراية البيضاء" دلالة على الاستسلام وطلـــب الأمـــان ولكـــن مـــاذا كان يدل هذا اللون في العصر العباسي من الناحية السياسية ؟

لقــد اعتبر البياض رمزًا لحركة المعارضة على عهد العباسيين فلقد رفع هذا الشعار معظم الثوار والخارجين على الدولة ليعبروا عن سخطهم وتمردهم ضد الدولــة. ولعــل أهم الجماعات التي بيضت هم أهل الشام لولائهم الشديد لبني أمية فيحكي ابن الأثير في أحداث سنة ١٣٢هـــ وهي السنة التي استقر الأمر فيها للدولة العباسية أن بعض الأماكن الشامية رفعت البياض ولاء للأمويين وخلعوا أبا العباس الســفاح يقول:" وفي هذه السنة بيض حبيب بن مرة المري وخلع هو ومن معه من أهــل البثنية وحوران- يقصد عبد الله السفاح(١) ويقول:" وفيها خلع أبو الورد مجزة بــن الكوثر- وأظهر التبييض والخلع لعبد الله ودعا أهل قنسرين إلى ذلك فبيضوا أجمعهــم... فلمــا بلــغ عبد الله تبييض أهل قنسرين وخلعهم.. سار إليها للقاء أبي الورد الذي مر بدمشق فانتقض له أهل دمشق وبيضوا.." (٢) ويقول: وفي هذه السنة بيض أهل الجزيرة وخلعوا أبا العباس السفاح" (٣)

ولــم يكــن البــياض رمــزًا لأصحاب الولاء الأموي فقط بل كان شعارًا للعلويين الذين اعتبروا الخلافة حقهم المشروع الذي اغتصبه العباسيون، ثم الفرس الــذين خابــت آمالهم التي عقدوها على مجيء العباسيين إلى الحكم فثاروا ليحققوا مكاسب أكثر أو ليعيدوا مجد إيران، وأخيرًا فإن الولاة والقادة العباسيين الذين ثاروا على الدولة العباسية ذاتها بعد أن اختلفوا مع الخليفة تبنوا البياض كذلك تعبيرًا عن مخالفتهم للدولة" (٤) ومن هنا فإننا نقول بأن اللون الأبيض كان رمزًا لتحدى السلطة العباسية(سلطة المسوّدة) أكثر من كونه رمزًا للولاء للأمويين لأسباب منها:

(أ) أن مبيضـــة الجزيرة من القبائل العربية لم تكن كلها موالية للأمويين بل أنها كانت ضد أية سلطة؛ لأن السلطة تفرض عليها النظام وتقيد من حريتها.

---

(١) الكامل، لابن الأثير، جـــ٤، ص٣٣٤ وانظر الطبري جـــ٣، ص ٥٤.

(٢) الصحيفة نفسها.

(٣) نفسه، ص٣٣٥.

(٤) بحوث في التاريخ العباسي، ص٢٤٨.

(ب) لقـــد تحالف مبيضة الجزيرة من الخوارج المعروفين بعدائهم الشديد للأمويين والمعروف عن الخوارج أنهم تبنوا اللون الأبيض في بعض حروبهم.[١]

(جـ) استعمل البياض ثوار آخرون لا علاقة لهم بالأمويين مثل: عبد الجبار الأزدي الذي بيض في خراسان بعد أن اختلف مع المنصور ودعا ظاهرًا إلى العلويين باعتــبارهم رمــز المعارضة للعباسيين وتحالف مع الفرس أتباع إسحق الترك وكان ذلك سنة ١٤٠هـــ .

ويذكر الطبري رواية ثانية عن تمرد والٍ عباسي آخر:" لما بايع عمر بن حفــص لمحمـــد بن عبد الله (النفس الزكية) وأوى ابنه عبد الله عنده في السند قطع الأعلام البيض والأقبية البيض والقلانس البيض وهيا لبسته من البياض يصعد فيها إلى المنبر، وتهيأ لذلك يوم خميس ولكن جاءه الخبر بقتل محمد".[٢]

وكان البياض كذلك هو اللون المفضل لدى الثوار من العلويين في العصر العباســي الأول وقد استعمل المؤرخون اصطلاح "التبييض" نفسه ليدلوا على ثورة محمد النفس الزكية، وأخيه إبراهيم وغيرها من الثورات العلوية لقول الطبري: "لما ظهــر محمـــد بن عبد الله بن الحسن وغلب على المدينة ومكة وسلم عليه بالخلافة وجــه آخاه إبراهيم بن عبد الله إلى البصرة فدخلها في أول يوم من شهر رمضان ســنة١٤٥هـــ فغلـــب عليها وبيض بها أهل البصرة معه"[٣]ويقول صاحب كتاب العــيون والحدائــق:" لما قدم عيسى بن موسى من الحجاز سرحه المنصور لحرب إبـــراهيم والمبيضـــة"[٤]. وحين يتكلم الطبري[٥]عن ثورة أبي السرايا العلوية يقول: " ذكر الخبر عن تبييض أخي أبي السرايا وظهوره بالكوفة" وحين يتكلم المسعودي

---

(١) الطبري، جـ٢، ص٢٩٨.

(٢) الطبري، جـ٣، ص٣٦١.

(٣) الطبري جـ٣، ص٥٦٠.

(٤) العيون والحدائق، ص٢٥٢.

(٥) الطبري، جـ٣ ١٠١٧ وما يليها.

عن ثورة الزنج التي ادعى قائدها بأصل علوي يقول:" وقد ذكر صاحب الزنج في أخبار المبيضة وكتبهم وقد أتينا على جميع خبره.. بالبصرة في الكتاب الأوسط" (١) وفي رواية أخرى يقول المسعودي عن ثورة طبرستان العلوية سنة ٢٨٧هـ:" كان مسير الداعي العلوي من طبرستان إلى بلد جرجان في جيوش كثيرة من الديلم وغيرهم " لما رأى من ثبوت الديلم على مصافها، فلم ينقض صفوفه، وولي، فأسرعت الديلم ونقضت صفوفها، فرجعت عليهم المسودة وأخذهم السيف، فقتل منهم بشر كثير وأصاب الداعي ضربات" (٢)

فلقيته جيوش المسودة من قبل إسماعيل بن أحمد وعليها محمد بن هارون فكانت وقعة لم ير مثلها في ذلك العصر وصبر الفريقان جميعا وكانت للمبيضة على المسودة ثم كانت مكيدة من محمد بن هارون.

ولما افترق أمر الهاشميين وخرج الطالبيون على العباسيين من كل جهة وعصر ذهبوا إلى مخالفتهم في ذلك فاتخذوا الرايات بيضاء وسموا بالمبيضة، لذلك سائر أيام العبيديين ومن خرج من الطالبيين في ذلك العهد بالمشرق كالداعي بطرستان وداعي صعدة أو من دعا إلى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة.(٣)

كما تبنت بعض الفرق الفارسية البياض شعارًا لها ولذلك سميت(المبيضة) ولكن المبيضة في خراسان والأقاليم الشرقية تختلف عن المبيضة في الشام والعراق والجزيرة، ذلك لأن اصطلاح المبيضة في خراسان كان يعنى بصورة خاصة الخرمية من أتباع أبي مسلم الذين دانوا بآراء متطرفة مجوسية واعترفوا بالولاء لأبي مسلم لا للعباسيين وبقوا مخلصين لذكراه حتى بعد مقتله. ولعل أشهر الحركات الفارسية التي تبنت المبيضة الخرمية هي حركة المقنع الخراساني سنة ١٥٩هـ" (٤)

---

(١) مروج الذهب، جـ٤، ص٢٢٢.

(٢) السابق، جـ٤، ص٢٩٩ ،٣٠٠.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص٢٥٩.

(٤) بحوث في التاريخ العباسي، ص٢٥١.

ولعل من دواعي إبراز المعارضة أن يستخدم المعارض نقيض ومضاد لون المعارض له.

أما موقف العباسيين من البياض فمن الطبيعي ألا يكون وديًّا لأنه شعار أعدائهم على مختلف اتجاهاتهم ولذلك نرى أن الخلفاء كانوا يأمرون عمالهم أو ولاتهم بلبس البياض عقوبة لهم لسوء إدارتهم، حيث تذكر بعض الروايات التاريخية أن المأمون سخط على عيسى بن منصور الرافقي وكان على إمارة مصر، وأمر بحل لوائه وأخذ بلباس البياض عقوبة له"[١]، وكذلك فعل ابن طولون وأخذ بأخيه موسى حيث" أمره بلباس البياض بعد أن سخط عليه".[٢]

وهكذا وجدنا أن اللون الأبيض ظل يدل في الأغلب على كل متحد للسلطة العباسية سواء كان من لهم ولاء للأمويين في الشام أو العلويين في فارس أو غيرهم من أصحاب الثورات، ولكن يجب أن نستدرك على هذه القاعدة العامة فنذكر رواية استثنائية تشير إلى عهد الخليفة العباسي المتوكل (ت ٢٤٧هـ) ومضمون الرواية " في سنة ٢٣٥هـ عقد المتوكل البيعة بولاية العهد لابنه محمد المنتصر بالله ثم بعده لابنه المعتز بالله ثم بعده لابنه إبراهيم المؤيد بالله، وعقد لكل واحد منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل"[٣]

وجاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي عن الخليفة المعتمد أيضا:" وفي سنة إحدى وستين ومائتين بايع المعتمد بولاية العهد بعده لابنه المفوض إلى الله جعفر ثم من بعده لأخيه الموفق طلحة وولى ولده المغرب والشام والجزيرة، وأرمينية وولى أخاه المشرق والعراق وبغداد والحجاز واليمن وفارس وأصبهان والري وخراسان وطبرستان وسجستان والسند، وعقد لكل منهما لواءين أبيض وأسود"[٤]

---

(١) الخطط للمقريزي، جـ٢، ص٤٤.

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغري بردى.

(٣) تاريخ الطبري جـ٣، ص٣٩٥، ما يليها.

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص٣٦٤.

ولعلهم في اتخاذهم للون الأبيض هنا يدل على استيعاب وتعمية لرموز المعارضة حتى يمكن أن تذوب في الدولة ويلغى استقلالها برمز البياض. أو هو نوع من التصالح والتحايل معا.

اللون الأخضر

يعد هذا اللون من أكثر الألوان انتشارًا وأعظمها شأنًا، إذ يبعث في نفس الإنسان كثيرًا من البهجة والسرور وخصوصا إذا كان هذا اللون يكسو الأرض في مساحات شاسعة كما هي الحال في الحدائق والبساتين والحقول المترامية الأطراف أو في الوديان التي تمتد عبر الصحراء حيث تكسوها الأعشاب والنباتات الخضراء بعد هطول الأمطار عليها.

وقد وضعت العربية لهذا اللون ألفاظًا أساسية تحدد خصائصه من حيث النصاعة والقتامة وتحدد مدى نقائه أو اختلاطه بالألوان الأخرى، فقالوا: أخضر، وأكدوه بقولهم: أخضر ناضر. وللأخضر المائل للسواد قالوا: أحوى وأدغم، وأدهم، ومدهام، وأقهب وأخطب وأورق وللخضرة تعلوها صفرة قالوا: أخضر أطحل، وقد اقترب مدلول هذا اللون عند العرب من مدلول الأسود، فعبروا بالأسود عن الأخضر في مثل قولهم(سواد العراق) أي مجموعة الشجر التي تحيط بها، وهي خضراء كثيفة تبدو داكنة للناظر عن بُعد، وعبروا بالأخضر عن الأسود: فالليل أخضر، والخضراء من الكتائب: التي يعلوها صدأ الحديد، والخضرة في الإبل: غبرة تخالطها دُهمة، كما أطلقوا لفظ الخضراء على السماء والمياه، وهكذا فإن الدائرة الدلالية للون الأخضر في العربية تتجه نحو النضارة والحيوية والتجدد والخصوبة والماء الصافي وتتسع الدائرة لتشمل الأدمة والغبرة والسمرة والزرقة والكدرة في ألوان الإبل والطيور والدلاء والسماء والماء والكتائب والليل".[١]

---

(١) اللون في الشعر العربي، ص٢١٢، ٢١٣، وانظر فقه اللغة للثعالبي، ص٥٦، ولسان العرب، مادة (خضر).

أما في القرآن الكريم فيعد اللون الأخضر مبعث راحة للنفس محببًا للنظر، فهو لون ثياب الجنة، وهو رمز دائم للحب والأمل والخصب والخير والسلام والأمان، وقد ورد في سبع سور ثماني مرات هي:(١)

"فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا "[الأنعام: ٩٩].

" الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ" [يس:٣٦].

"إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ" [يوسف:٤٣].

"أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ" [يوسف: ٤٦].

"مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ" [الرحمن:٧٦].

" عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ" [الإنسان:٢١].

" وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ " [الكهف:٣١].

" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً " [الحج:٦٣].

وبالتدقيق في ألفاظ هذا اللون يثبت أن اثنين في هذه الألفاظ الثمانية قد ارتبط بلون ثياب ومجلس المؤمنين في الجنة، بينما اقترنت الألفاظ الباقية بالنبات، ليدل دلالة واضحة على قدرة الله المطلقة في الخلق والإعجاز في الإخصاب، فالنبات الأخضر ينبت من الأرض والأرض تستمد ماءها من غيث السماء، لتنبت من كل لون وطعم ورائحة بأبهى حلل، تروق النظر، وتنعش النفس، وتبعث فيها الأمل والحياة.

كما ورد هذا اللون في الحديث النبوي أكثر من ثلاثين مرة (٢) إذا أخرجنا

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم (خضر).

(٢) معجم ألفاظ الحديث(خضر).

منها ما جاء في معناه الحقيقي - وهو قليل - نجد الباقي مرتبطًا بمعاني الخير والجمال والعطاء.

- أتاني جبريل في خضر معلق به الدار.
- مثل المؤمن كمثل شجرة خضراء.
- كساه الله من خضر الجنة.
- أرواحهم في جوف طير أخضر.

ولعل هذا هو السر في اختياره لونًا لأستار الكعبة ولأضرحة بعض الأولياء ولعمائم فئات من شيوخ المسلمين"(١)

أما في العصر الحديث فيحوي هذا اللون معنى الرحمة واللطف والاعتدال(شتاء أخضر- معتدل)، ومعنى الجاذبية والبهجة، ومعنى الشباب والحيوية، وعدم النضج (تفاح أخضر) ، وكذلك معنى الجدة. وفي المقابل قد يعني شيئًا له مظهر باهت ومريض أو شخص حسود (أخضر من الحسد).

كما يشير هذا اللون إلى الحركات السياسية المناصرة للبيئة (حركة السلام الأخضر)، أو الأفراد الذين يعملون من أجل الحفاظ على البيئة (حزب الخضر)"(٢)

أما في العصر العباسي فنجد أن الخليفة المأمون قد تبنى الخضرة شعارًا للدولة العباسية بدل السواد وأعلن عن بيعته لأبي الحسن علي بن موسى الرضا سنة ٢٠٢هـ ، يقول المسعودي:" ووصل إلى المأمون أبو الحسن علي بن موسى الرضا، وهو بمدينة مرو، فأنزله المأمون أحسن إنزال، وأمر المأمون بجميع خواص الأولياء، وأخبرهم أنه ينظر في ولد العباس وولد علي رضي الله عنهم، فلم يجد في وقته أحدًا أفضل ولا أحق بالأمر من علي بن موسى الرضا، فبايع له

(١) اللغة واللون، د. أحمد مختار، ص٢٢٦.

(٢) مجلة (حراء) العدد الثاني (يناير /مارس) ٢٠٠٦، مقال الألوان والإنسان/ملح مراد، مجلة علمية ثقافية فصلية دمشق.

بـولاية العهـد، وضـرب اسمه على الدنانير والدراهم، وزوج محمد بن علي بن موسي الرضا بابنته أم الفضل.

وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام وأظهر بدلا من ذلك الخضرة في اللـباس والأعلام وغير ذلك، ونما ذلك إلى من بالعراق من ولد العباس، فأعظموه إذ علموا أن في ذلك خروج الأمر عنهم.

وحـج بالـناس إبـراهيم بـن موسى بن جعفر أخو الرضا بأمر المأمون واجـتمع مـن بمدينة السلام من ولد العباس ومواليهم، وشيعتهم على خلع المأمون ومبايعة إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة"(١)

فجهـز المأمـون لقـتاله وجرت أمور وحروب وسار المأمون إلى نحو العـراق فلـم ينشب على الرضا أن مات في سنة ٢١٣هـ فكتب المأمون إلى أهل بغداد يعلمهم أنهم ما نقموا عليه إلا ببيعته لعلي، وقد مات فردوا جوابه أغلظ جواب فسار المأمون، وبلغ إبراهيم بن المهدي تسلل الناس من عهده فاختفى...

ووصـل المأمون بغداد في سنة أربع فكلمه العباسيون وخبرهم في العود إلى لبس السواد وترك الخضرة فتوقف ثم أجاب بعد ذلك"(٢)

ومن هنا نجد أن نزاعًا عنيفا قد قام بين رايات ثلاث هي:

الأخضـر: ويمـثل الدولـة العباسية وخليفتها المأمون وولى عهده علي بن موسي الرضا.

الأسود: ويمثل الأمراء العباسيين ومعهم شيعة العباسيين القدماء وأهل بغداد.

الأبـيض: ويمثل الثوار العلويين الذين ثاروا ضد الدولة وحاولوا دون جدوى إقناع العباس بن موسى أن يعلن الخلافة العلوية.

---

(١) مـروج الذهب للمسعودي، جـ٤، ص٣٣، مقدمة ابن خلدون، ص٢٥٩، الكامل في التاريخ، جـ٥، ص١٨٣.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص٣٠٧.

والطـــريف هـــنا أن اللـــون الأخضر أصبح يمثل الدولة العباسية والخليفة العباس في الوقت الذي صار السواد يمثل الثوار، ولكن هؤلاء الثوار كانوا من نوع خاص؛ ذلك لأنهم يمثلون شيعة العباسيين المخلصين للتقاليد العباسية القديمة والذين أجزنهم ما قام به المأمون من "بدع" ربما تؤدى في نهاية المطاف إلى خروج الأمر من يد العباسيين.

وبعد أن عدل المأمون عن اللون الأخضر وعاد إلى الأسود يبقي السؤال: ما الداعي لاتخاذ الخليفة المأمون اللون الأخضر شعارًا للدولة العباسية ؟

ربمـــا تكـــون الإجابـــة الأكثر قبولا أن اللون الأخضر اختير لأنه اللون المحـــبب لـــدى أهل الجنة -كما أسلفنا- ولدلالته على الوئام والوفاق. وكان هدف المأمـــون مـــن ذلك هو إعلان بدء عهد جديد من الالتئام بين أهل البيت جميعا من عباسيين وعلويين الذين سيمارسون حقهم الشرعي بالخلافة بصورة مشتركة.

ولعـــل مـــا يؤيد هدف المأمون هذا في اختياره الخضرة هو عدوله عنها، ورجـــوعه إلى السواد بعد تأكده من فشل سياسته في التوفيق، لمعارضة العباسيين والعلويـــين وأشـــياعهم لهـــذه السياسة.[١] فيبدو أن اللون الأخضر قد اختير كلون توفيقي للبيت الهاشمي بفرعيه العباسي والعلوي.

وربما يعزز هذا ما رواه السيوطي بأن الملك الأشرف شعبان أحد سلاطين المماليك في مصر كان قد أشار على الأشراف من (بني هاشم) سنة ٧٧٣هـ بأن يميزوا أنفسهم بلبس الخضرة وقد أشار بعض الشعراء إلى ذلك قائلا:

جعلوا لأبناء الرسول علامةً إنّ العـــلامة شـــأن مـــن لم يشهر
نور النبوّة في وسيم وجوههم يغني الشريف عن الطراز الأخضر[٢]

---

(١) بحوث في التاريخ العباسي، ص ٢٥٤، ٢٥٥.

(٢) نفسه، ص ٢٥٥، ٢٥٦.

ولا نــدري كــيف فات المأمون في اختياره اللون الخضر أنه كان شعارًا لبنــي أمــية فــي بعــض الأوقــات، بالذات في بداية الدولة الأموية. حيث يقول المســعودي حول معركة صفين:" وخرج اليوم التاسع – وهو يوم الخميس– علي، وخــرج معاوية فاقتتلوا إلى صحوة النهار، وبرز أمام الناس عبيد الله بن عمر بن الخطــاب فــي أربعة آلاف من الخضرية معممين بشقاق الحرير الأخضر متقدمين للمــوت يطلبون بدم عثمان"[١]، كما جاء في صبح الأعشى:" وكان شعار بني أمية مــن الألوان الخضرة، فقد حكى صاحب حماة عن الملك السعيد إسماعيل: إنه حين ادعى الخلافة وأنه من بني أمية لبس الخضرة وهذا صريح في أنه شعارهم"[٢]

اللــــون الأحمــــر

يعــد اللــون الأحمر أول لون عرفه الإنسان بالمعنى العلمي لكلمة اللون، حــيث إن الأبيض والأسود ليسا لونين حقيقيين فالأول يمثل جماع الألوان، والثاني يمثل انعدامها، وأما الأخضر والأزرق فهما من آخر ما مُيّز من الألوان لدى معظم الشعوب، فالأحمر إذن هو أول لون معروف بالمعنى العلمي[٣]

وقــد أثبتت الدراسات النفسية أن اللون الأحمر يثير روح الهجوم والغزو والافتتان والشجاعة والثأر ويخلق في الإنسان نوعًا من التوتر العضلي، ويرفع من حرارة الجسم وهو يبدو أكثر الألوان إغراءً في الطعام.[٤]

ولــذلك يحــث المتخصصون في دراسات الطفل السيكولوجية على تقديم اللعــب ذات اللــون الأحمر له؛ لأنه يُشغل بها ويتأملها فيكف عن البكاء أو متابعة الأم.

---

(١) مروج الذهب، للمسعودي، جـ٢، ص٤٢١.

(٢) صبح الأعشى، للقلقشندي، جـ٣، ص٢٧٤ .

(٣) اللون في الشعر العربي، ص٥٧.

(٤) اللغة واللون، ص١٥٤.

وكــذلك يوصون بوضع أطعمته في أطباق تحمل نفس اللون لتثير شهيته للأكــل. ويــؤكد ذلك أيضا ما يتم في حلبة مصارعة الثيران حتى الآن في بعض بلدان الغرب من إثارة الثور عن طريق الملابس الحمراء التي يرتديها المصارع.

وقــد جاء في العربية للون الأحمر عشرات الألفاظ التي تعبر عن ماهيته وقيمته ومدى نقائه ودرجة تشبعه وهي الحدود الوصفية العلمية للون، فقالوا: أحمر وأكــدوه بقــولهم أحمر قاني وأرجوان، ونكع، وناكع، ومدمسى، وكَرك، وعاتك، وباحر، وبحرانى، وذريحى، وثقيب،وحائط، وغضب، وعبروا عن الحمرة الصافية الخالصـــة المشــرقة بقــولهم: أحمـــر ناصع ويافع وزاهر، ويانع وغير ذلك..كما استخدموا ألفاظًا تعبر عن اختلاط الأحمر بغيره من الألوان، فالأحمر القاتم القريب للسواد قيل له: أشفع وأحسب وأصهب وأكهب، وللأحمر المائل للبياض قيل: أشقر، وأعفــر، وللأحمر بلون اللهب قيل: ألهب، وقالوا: إذا كان الرجل أحمر فهو أشقر، وإذا كان الجبل أحمر فهو هضبة، وإذا كانت الأرض حمراء الحصي فهي حثرمة، وقالوا: أقشر للأحمر الذي ينقشر وجهه.(١)

ولقــد ارتبطت كثير من تعبيرات الأحمر في اللغة العربية بالمشقة والشدة مـــن ناحية أخذا من لون الدم، وبالمتع الجنسية من ناحية أخرى، وإن ظهر الأخير في الاستعمالات الحديثة فقط.(٢)

ويرمز اللون الأحمر في الديانات الغربية إلى الاستشهاد في سبيل مبدأ أو دين. وهو رمز لجهنم في كثير من الديانات، حيث توصف جهنم بأنها حمراء".(٣)

أمـــا فـــي القـــرآن الكريم فلم يرد اللون الأحمر بلفظه الصريح سوى مرة واحـــدة مزروعة بين اللونين الأبيض والأسود في الآية٢٧ من سورة فاطر:" وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ" [فاطر: ٢٧].

---

(١) اللون في الشعر العربي، ص٥٨، وانظر فقه اللغة للثعالبي. ص٥٦، ٥٧.

(٢) اللغة واللون، ص٧٥.

(٣) اللغة واللون، ص٢٢٦.

كما وردت في لفظ آخر لتدل على لون السماء حين تتفرج أبوابها لنزول الملائكة في قوله تعالى : "فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ" [الرحمن:٣٧] ، ولون الوردة هنا يدل على لون الجلد ، كناية عن عظم هول يوم القيامة.

ولون الحمرة الصريح في الآية الأولى يقع ضمن سياق متناسق تناسقًا فنيًّا فريدًا من التصوير الرائع، حيث تتوزع الألوان في رقعة حجرية من الأرض، وفيها ما يريح النظر ويبعث المتعة في النفس الإنسانية، ويأخذ بها إلى التأمل والتفكير في براعة الخالق وقدرته العجيبة.

وورد اللون الأحمر في الحديث النبوي[١] ما يزيد على خمسين مرة بعضها في اللون المعروف وبعضها بمعنى الأبيض، وبعضها بمعنى الأصفر، وقد حمل في أحيان كثيرة دلالات ورموزًا تخرج به عن مجرد اللون:[٢]

١- فقد كان الرسول(K) يكره هذا اللون في الثياب ربما لإيحاءاته النفسية الخاصة ولذا جاء في الحديث النبوي:

- نهاني رسول الله.. عن لبس الحمرة.
- اشترى ثوبا شاميا فرأى فيه خيطا أحمر فرده.
- وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس.

٢- ولارتباط الحمرة بالذهب الذي يرمز إلى حب الدنيا والتكالب عليها نجد الأحاديث النبوية تطلق الأحمر على الذهب.

- فألهاهن الأحمران الذهب والحرير.
- وأعطيت الكنزين الأحمر والأصفر.

١- معجم ألفاظ الحديث(حمر).

٢- اللغة واللون، ص٢٢٧.

٣- ومع كراهية الحمرة في الملابس صرحت الأحاديث بعكس ذلك بالنسبة للإبل والنعم:

- أن لي بها حمر النعم.
- يخطب على ناقة حمراء.
- كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء.
- موسي على جمل أحمر.
- على فرس ياقوته حمراء.

٤- ولأن العــرب تطلــق علــى الأبيض الأحمر إذا أرادت اللون (أما لفظ أبيض فتستعمله للدلالة على الطهر والنقاء) فقد كثرت الأحاديث في هذا المعنى:

- بعثت إلى الأحمر والأسود.
- لا فضل لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر.
- فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود.

٥- وجاءت الحمرة وصفًا للريح إيحاءً بما تحمل معها من دمار وخراب وعذاب:

- فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء.

أما في مجال السياسة فيشير اللون الأحمر في العصر الحديث إلى الإثارة أو الدفــع نحــو تغييــر اجتماعي سياسي جذري مصحوبًا بالقوة كما هو الحال في الــثورة الحمــراء وأي شــيء آخر يتصل بالشيوعية مثل المربع الأحمر الخاص بالاتحــاد الســوفيتي السابق، بل يوجد في العالم جيشان أحمران، الجيش السوفيتي الــذي أسس عقب ثورة ١٩١٧، والجيش الأحمر الياباني الذي أسس عام ١٩٦٩، وعــرف أولهمــا بقوانينه ونظمه الصارمة مثل معاقبة بعض الكتائب بإرسالها في مــوجات انتحار جماعية، غير أن مجموعة من القوانين الجديدة سنت عام ١٩٦٠ خففت من حمرة الجيش السوفيتي، أما الثاني فهو عبارة عن منظمة إرهابية يابانية صغيرة بقيت ناشطة حتى ١٩٩٠.

أمـــا الألـــوية الحمراء الإيطالية وهي منظمة إرهابية يسارية متطرفة فقد اخـــتارت اللـــون الأحمـــر والعنف، في سعيها لتهيئة إيطاليا في السبعينات لثورة ماركســـية، كما اختار الثوريون الصينيون الذين سعوا لإنهاء الثقافة الصينية اللون الأحمـــر والعـــنف، وتابعهم الثوار الكمبوديون الذين يعرفون باسم "الخمير الحمر" والـــذين قامـــوا بقـــتل جيل بأكمله أو ما يقارب المليون ونصف المليون نسمة من الســـكان البالغ عددهم٥,٧ مليون نسمة في فترة حكم امتدت لثلاث سنوات ونصف فقط ".[١]

ومـــن كـــل هذا وجدنا أن اللون الأحمر ليس محببًا من الناحية الاجتماعية والسياســـية لأنـــه ارتـــبط بالـــدم وإزهاق الأرواح، ولهذا كان ألصق إلى حد بعيد بالجماعات الخارجة فماذا كانت دلالة هذا اللون في العصر العباسي؟

الأغلـــب أن العباسيين أنفسهم لم يستخدموا هذا اللون ولكنه ارتبط بصورة رئيســـية بالأمويـــين. ولعل أول ما نلاحظه في جيش مروان بن محمد آخر خليفة أمـــوي كما أورد الطبري " أن في جيشه فرقة تسمي المحمرة.[٢] ولكننا لا نعرف مـــاذا يقصد بها؟ هل اسمها جاء من الرايات الحمر التي كانت تميزها عن غيرها من الكتائب، أو أنها سميت كذلك نسبة إلى قائدها أو مكان ما.

وبعـــد تأســـيس الدولـــة العباسية تبني الثوار الأمويون خاصة من الفرع الســـفياني اللـــون الأحمـــر شـــعارًا لعصيانهم على العباسيين، وخلافهم لهم. يقول الـــبلاذري:"خـــرج محمد السفياني سنة ١٣٣هـــ، على العباسيين ولبس الحمرة "[٣] ولكن الطبري يصف شعار الثورة الشامية بالبياض.[٤]

---

(١) مجلـــة حـــراء: فصلية علمية محكمة، العدد(٢) يناير مارس٢٠٠٦، الأوان والإنسان مليح مراد.

(٢) تاريخ الطبري، جـــ٣، ص٤٠.

(٣) أنساب الأشراف، ص٨٠١.

(٤) تاريخ الطبري، جـــ٣، ص٥٤، ٥٥.

ولكم هذا الارتباك له ما يبرره إذا علمنا أن قيادة ثورة سنة ١٣٣هـ كانت بيد اثنين أولهما أبو محمد السفياني وثانيهما أبو الورد الكلابي وكان الكلابي يحاول أن يتزعم الحركة بنفسه ولكن السفياني لم يسمح بأن يجعل من نفسه دمية في يد الكلابي. إن شعار الكلابي وأتباعه من القيسية كان البياض بينما كان شعار السفياني وأنصاره الكلبية هو اللون الأحمر ولعل هذا يفسر كذلك التصادم بين الجماعتين منذ بدء الثورة مما أدى بالتالي إلى فشلها.(١)

على أن الحمرة لم تكن شعارًا أمويًّا فقط حيث استعمله الخوارج، كما رفعه القائد العباسي يزيد بن مزيد الشيباني عند حربه مع الخوارج حيث دعا الخوارج وهم يهربون بأن ينضموا إلى الراية الحمراء إذا أرادوا الأمان والاستسلام كما رفعت المحمرة وهي فرقة خرمية الشعار الأحمر في تحديها للمسودة العباسيين وتظلمها من سياستهم(٢)

" وفي سنة اثنين وستين ومائة خرجت المحمرة بجرجان فسار إليهم عمر بن العلاء ففرقهم".(٣)

فعلى هذا فإننا نلاحظ أن الشعار الأحمر رفعته جماعات مختلفة أموية وخارجية وفارسية للتعبير عن معارضتها للعباسيين، وربما استخدمت هذه الجماعات هذا اللون للدلالة على أن التعبير والانقلاب المنتظر لن يتم إلا بالدم وتقديم الأرواح وكتائب الموت.

* * * * * *

---

(١) بحوث في التاريخ العباسي، ص٢٥٧.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي، ص٢٥١.

(٣) الأخبار الطوال، ص٣٥٣.

الخاتمـــــة

وفـــي الخاتمـــة لعلـــنا نستنتج أن اللون الأسود أصبح لونًا سياسيًّا للدولة العباسية يستند إلى مرجعية دينية كما أسلفنا ومن ثم أصبح لونًا للولاء للعباسيين.

أمـــا اللـــونان الأبيض والأحمر فكانا رمزا لكثير من الحركات المعارضة للدولـــة العباسية من الأمويين والعلويين والفارسيين وإن كان اللون الأبيض الأكثر شيوعا لحركات المعارضة التي تحدت السلطة بشكل سافر.

أمـــا اللون الأخضر فكان رمزا للدولة العباسية في عهد المأمون بدلا من اللـــون الأســـود فـــيما لا يزيد عن عامين فقط ليدل على التوحد والتآلف والتآخي والتوافق والأمن والطمأنينة من شقي البيت الهاشمي من العباسيين والعلويين ولكنها خطوة فشلت ولم يكتب لها النجاح.

المصادر والمراجع

١- الأخبار الطوال، لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري، تحقيق: د.عمر فاروق الطباع، دار العلم، بيروت، لبنان.

٢- أخبار العباسي وولده، لمؤلف مجهول مكتبة المثنى، بغداد، العراق.

٣- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية.

٤- ألفاظ الألوان في العربية، د. عاهد الماضي، دار السلم للطباعة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٥- أنساب الأشراف، للبلاذري، طبعة القدس، ١٩٣٨م.

٦- بحوث في التاريخ العباسي، د. فاروق عمر، دار القلم، بيروت، مكتبة النهضة بغداد، الطبعة الأولى ١٩٧٧م.

٧- تاريخ الإسلام السياسي، د. حسن إبراهيم حسن، دار الجبل(بيروت) مكتبة النهضة المصرية(القاهرة) الطبعة الرابعة عشر ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٨- تاريخ الخلفاء للسيوطي، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الرابعة، ١٣٨٩ هـ- ١٩٦٩م.

٩- تاريخ الرسول والملوك، لابن جرير الطبري.

١٠- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

١١- الجماهر في معرفة الجواهر، لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

١٢- ربيع الأبرار وفصوص الأخبار، للزمخشري، تحقيق: د.عبد المجيد دياب أ. مرزوق علي إبراهيم، مطبعة دار الكتب والوثائق المصرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٣- صبح الأعشى: لأبي العباس أحمد القلقشندي، دار الكتب المصرية.

١٤- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د. محمد السعران، دار الفكر العربي، القاهرة.

١٥- الفــرق بــين الفــرق، للبغدادي ت. محمد محيي الدين عبد الحميد دار المعرفة، بيروت.

١٦- فقــه اللغـــة وسر العربية، لأبي منصور الثعالبي، حققه: مصطفى السقا وآخرون. البابي الحلبي، ١٣٩٢، ١٩٧٢.

١٧- الكامــل فـــي التاريخ، لابن الأثير، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

١٨- اللغة، لفندريس، ترجمة الدواخلي والقصاص، بدون تاريخ.

١٩- اللغـــة واللون د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٩٧.

٢٠- اللـــون فـــي الشـــعر العربـــي قـــبل الإســـلام، إبـــراهيم محمـــد علي (جروس برس)، طرابلس، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠١.

٢١- مدخل إلى الدلالة الحديثة، عبد المجيد جحفة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب ١٩٩٩م.

٢٢- مــدخل إلـــى السيميوطيقا، إشراف: سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد دار إلياس العصرية.

٢٣- مـــروج الذهب، للمسعودي، قدم له: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢٤- مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون، دار القلم، بيروت، لبنان.

٢٥- النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، القاهرة.

٢٦- نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

٢٧- وفـــيات الأعـــيان، لابـــن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان.